الفصل العاشر

الكذب في الحياة العامة

فـي الفصل السابـق، وصفت نتائج أحدث البحوث، والبحوث قيـد الدّراسة. واستندت إلـى خبرتـي في تعليم مكتشفي الكـذب المحترفين. لا يعتمد هذا الفصـل على دليل علمي. ولكنـه يعتمـد على تقييماتـي الشخصية التي يفيد بهـا التفكير بطبيعة الكـذب والمحاولات البحثية لفهم السياق الأكبر الذي أعيش فيه.

تبرير أوليفر نورث للكذب

فـي إحـدى جلسات شهادتـه، اعترف العقيد نـورث أنّه قبل سنوات كـذب على مجلس الشيوخ بشأن تحويل الأموال الإيرانية للكونترا في نيكاراغوا المؤيدة للولايات المتحدة. وقال: إنّ الكـذب ليـس سهلاً عليّ، ولكن علينا أن نضع في الميزان الفـرق بين الأرواح والأكاذيب. كان نـورث يقتبـس المسوِّغ التقليدي للكذب الذي ناقشه الفلاسفـة لقرون عدّة، وماذا علينا قولـه لرجل يلوّح ببندقيته ويسأل: أين أخوك؟ سوف أقتله. لا يعدُّ هذا التّلويح معضلة لدينا، فلـن نكشـف عن مكان وجود أخينا، بل سنكذب ونعطي موقفاً مزيفاً. وكما قال أوليفر نورث: إذا كانـت الحياة بحـدّ ذاتها على المحك، فعليـك بالكذب. ويمكن ملاحظـة المثال الأكثر واقعية في التحذيرات التي يصدرها الأهل لأطفالهم الحاملين المفاتيح وعائدين إلى منازل ذويهـم بعد عودتهم مـن المدارس؛ ليظلوا من غير رقابة لحين عودة ذويهم عما يقولونه إذا قرع غريب ما باب منزلهم.

obeikandl.com

يُطلب إليهم القول أنهم ليسوا وحدهم في المنزل، والكذب والادعاء أنّ ذويهم في قيلولة. في كتابه الصادر بعد أربع سنوات من جلسات الاستماع في مجلس الشيوخ، وصف نورث مشاعره حيال المجلس وحرج قضيته، قائلاً: «كان كثير من أعضاء مجلس الشيوخ وموظفيهم أشخاصاً أصحاب امتيازات، تخلّوا عن المقاومة النيكاراجوية من غير خجل، وتركوها تحت رحمة عدو قوي ومسلح تسليحاً جيداً. والآن، أرادوا إذلالي للقيام بما كان عليهم القيام به! (ص. 50)... لم أرَ نفسي يوماً فوق القانون، ولم يكن في نيَّتي القيام بما هو غير قانوني. لقد اعتقدت دائماً أنّ تعديلات بولاند لم تمنع مجلس الأمن القومي من دعم الكونترا، وما زلت أعتقد ذلك. وقد اشتملت أكثر التعديلات صرامة على ثغرات استخدمناها لضمان عدم التخلي عن المقاومة النيكاراجوية[1]». اعترف نورث في كتابه، أنّه ضلّل أعضاء مجلس الشيوخ في عام 1986م عندما حاولوا معرفة ما إذا كان يقدم مساعدة مباشرة للكونترا أم لا.

إنّ منطق كذب نورث في الدفاع عن الأرواح لا مسوّغ له؛ لأنه أولاً، غير متأكد من أن خياره كان واضحاً. فقد ادعى أنّ الكونترا سيُقضى عليهم؛ بسبب تعديلات بولاند، التي حظر مجلس الشيوخ بموجبها، في مرحلة معينة، أي مساعدة (قتاليّة) لهم، لكن لم يكن هناك توافق في الآراء بين الخبراء في أنّ حجب هذه المساعدات سيعني القضاء على الكونترا. لقد كان حكماً سياسيّاً، اختلف معه معظم الديمقراطيين والجمهوريين بشدة، وهذه ليست مقاربة لليقين أنّ القاتل الملتزم الذي يهدّد بالقتل سيفعل ذلك.

والاعتراض الثاني لادعاء نورث أنه يكذب لحماية الأرواح هو مشكلة المتلقِّي من أكاذيبه. فلم يكن يكذب على الشخص الذي أعلن عن نيته القتل، ولو كان القتل سيحدث، فسيكون من يقوم به هو الجيش النيكاراجوي وليس أعضاء مجلس الشيوخ.

وفي حين قد يدّعي الذين يختلفون مع تعديلات بولاند أنّ هذه ستكون النتيجة، فإنّها لم تكن النيّة المعلنة لدى أولئك الذين صوتوا على التعديلات، ولا يمكن القول هذا ما يسعون إليه عمداً، حتى لو لم يكن ذلك معلناً في ذلك التشريع.

اختلف الحكماء والفضلاء عما ستكون عليه نتائج حجب المساعدة (القتاليّة)، وما إذا كانت تعديلات بولاند قد سدّت الثغرات جميعها. لم يستطع نورث معرفة ذلك لحماسته، أو أنه لو رأى ذلك فعلاً فلن يهتم بعدم وجود أيّ حقيقة يتفق عليها العقلاء جميعهم. وكانت تتمثل غطرسة نورث في إعطاء حُكمه وزناً أكبر مقارنة بحكم أغلبية أعضاء مجلس الشيوخ، وللتصديق أنّ ذلك كان مشروعاً لتضليل المجلس.

والاعتراض الثالث على منطق نورث بالكذب لحماية الأرواح هو أن كذبته انتهكت عَقْداً أبرمه يمنعه من الكذب على المجلس، فلا أحد ملزم بالرّدّ بصدق على القاتل الملتزم. تنتهك أفعال القاتل المعلن عنها القوانين التي نؤيدها ويؤيدها، فضلاً على أنّ أطفالنا غير ملزمين بالصدق تجاه الغريب الذي قرع باب البيت، على الرغم من أنّ الأمر قد يصبح أكثر غموضاً إذا ادعى ذلك الغريب أنّه في محنة ما، ولكنّ الجميع على كلّ حال ملتزم بالشهادة بصدق أمام لجنة التحقيق في المجلس، ويمكن أن يُقاضى بسبب الكذب. كان لدى نورث أسباب إضافية ليكون صادقاً بحكم مهنته؛ لقد أقسم العقيد نورث في الجيش للمحافظة على الدستور، ومن خلال الكذب على المجلس، انتهك نورث المقدمة الدستورية لتقسيم المسؤولية بين فرعي الحكومة، وخصوصاً قسم التحكم في الميزانية الذي يعطيه الدستور للكونغرس؛ ليتفحصه، مقابل السلطة التنفيذية للقانون[2]. لم يكن نورث من غير وسيلة لو شعر أنه مجبر على تنفيذ السياسات التي اعتقد أنها تهدد بطريقة غير أخلاقية الآخرين للخطر، وكان من الممكن أن يستقيل ثم يتحدث علناً ضد تعديلات بولاند.

يستمر الجدل اليوم إذ يُقاضى مسؤولو وكالة الاستخبارات المركزية الذين يُزعم أنّهم كذبوا على مجلس الشيوخ. وقد نُوقش مؤخراً في المجلس سؤال ما إذا كانت هناك مجموعة قواعد خاصة بمسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية، والذين بسبب الطبيعة السرية لعملهم، قد لا يكونون ملزمين بالصدق أمام المجلس. ولمّا كان نورث يتلقى تعليماته من مدير وكالة الاستخبارات المركزية كيسي، يمكن تبرير أفعاله على أنّه ينفّذ معايير موظفي تلك الوكالة. ذكر ديفيد ويبل مدير رابطة ضباط وكالة الاستخبارات المركزية السابقين قائلاً: «من وجهة نظري، إنّ كشف أقلّ قدر ممكن للمجلس إذا تمكن أحدهم من الإفلات بذلك ليس أمراً سيئاً، وأنا نفسي أجد صعوبة في لوم هؤلاء الرجال[3]». وقال راي كلاين ضابط متقاعد

مـن الاستخبارات المركزية: «في التقليـد القديم للاستخبارات المركزية، شعرنا أنه ينبغي حمايـة كبار ضبّاط الموظفين مـن التعرض للخطر[4]». يرى ستانسفيلـد تيرنر مدير وكالة الاستخبـارات المركزيـة في عهـد الرئيس جيمي كارتـر مـن 1981 –1977م، وجوبَ عدم تصريـح الرئيس للاستخبارات بالكذب على مجلس الشيوخ، ويجب أن يكون معلوماً لموظفي الوكالة عدم حمايتهم إذا كذبوا[5].

إنّ مقاضـاة نـورث، و بويندكستر، وحديثاً مسؤولَي وكالـة الاستخبارات المركزية الآن فيـرز، وكلير جورج، بالكذب على المجلس قد تنقـل رسالة ما. إنّ جورج هو المسؤول الأعلى فـي وكالة الاستخبارات الذي يُقاضى بتهمة الكذب على لجنة المجلس التي تحقق في قضية إيـران– كونتـرا في 1987م. ولأنـه يُعتقد على نطاق واسع أنّ مديرهـا كيسي لم يلتزم بتلك القواعـد، يمكن للمرء القـول: إنّ من الخطأ معاقبة الأشخاص الذيـن وجهوا للاعتقاد على أنهم لا يقومون بما يريده الرئيس فحسب، بل يجب حمايتهم أيضاً إذا تعرضوا للخطر.

الرئيس ريتشارد نيكسون وفضيحة ووترغيت

ربمـا يكون الرئيس الأسبق نيكسـون المسؤول الحكومي الأكثر إدانة بالكذب، وكان أول رئيس يقدم استقالته، ولكن لم يكن ذلك بسبب كذبه.

ولم يُفرض عليه تقديم الاستقالة؛ لأنّ الأشخاص الذين كانوا يعملون في البيت الأبيض ضُبطوا في مكتب ووترغيت ومجمع الشقق في شهر يونيو 1972 يحاولون اقتحام مقر الحزب الديمقراطـي، بـل كان التستر الـذي اتهم به، والأكاذيـب التي قالهـا للمحافظة على ذلك. وكشفـت أشرطة المحادثات التسجيلية التـي سُجِّلت في البيت الأبيض، والتي كُشفت للعموم لاحقـاً، أنّ نيكسون قال في ذلـك الوقت: «لا آبه بما يحدث، أريد منـك المماطلة والتسويف بذلـك، والسمـاح لهم بالمرافعة على التعديل الخامس أو أيّ شيء آخر، فإن كان ذلك منقذاً فسوف ينقذ الخطة.»

نجـح التّستّـر مدّة سنـة تقريباً، حتى قـال أحد المُدانيـن لاقتحـام ووترغيت جيمس ماككـورد للقاضـي: «إنّ الاقتحام كان جزءاً مـن مؤامرة أكبر. بعد ذلك، ظهـر أنّ نيكسون

سجّل المحادثات التي دارت في المكتب البيضوي جميعها. وعلى الرّغم من محاولة نيكسون إخفاء المعلومات التي تدينه في هذه الأشرطة كلّها، فقد كان فيها دليلٌ كافٍ كي تقدم اللجنة القضائية موادّ إقالته، وعندما أمرت المحكمة العليا نيكسون بتسليم الأشرطة لهيئة المحلفين، قدم استقالته في التّاسع من أغسطس 1974م.

والمشكلة كما أراها لم تكن بكذب نيكسون؛ لأني أؤكد أنّ بعض الزعماء يفعلون ذلك أحياناً، بل كان ما كذب به نيكسون، ودافعه للكذب، وعلى من كذب، لم تكن هناك محاولة لتضليل حكومة أخرى، بل إنّ الشعب الأمريكي هم من كانوا ضحية كذبه. لم يكن هناك ادعاء محتمل للتبرير من حيث الحاجة إلى تحقيق أهداف السياسة الخارجية، ولقد أخفى نيكسون معرفته بالجريمة، وهي محاولة سرقة وثائق من مكتب الحزب الديمقراطي في مباني ووترغيت، وكان دافعُه البقاءَ في منصبه، وعدم المخاطرة برفض الناخبين له إن علموا أنه عرف عن انتهاك الذين يعملون معه للقانون؛ لتحصيل مكاسب في الانتخابات المقبلة.

اتهمت المادة الأولى من المساءلة نيكسون بإعاقة العدالة، واتهم بالمادة الثانية بإساءة استخدام سلطات منصبه وفشله في ضمان تنفيذ القانون، واتهم بالمادة الثالثة بعصيان مذكرات الجلب بالعمد الصادرة من اللجنة القضائية. علينا ألاّ ندين نيكسون ببساطة؛ لأنه كان كاذباً، مع أنّ هذه تُهم متكررة واجهها نيكسون من خصومه، وإلا فلن يستطيع الزعماء القيام بعملهم إذا حُرموا من الكذب بصورة مطلقة.

كذبة الرئيس جيمي كارتر المشروعة

يُعدّ ما حدث خلال مدّة رئاسة الرئيس السابق جيمي كارتر مثالاً جيداً للظرف الذي يُنظر فيه إلى أنّ كذبَ موظف عمومي مشروعٌ. انتُخب الحاكم السابق لجورجيا كارتر عام 1976 رئيساً بعد أن هزم جيرالد فورد الذي تولّى الرّئاسة بعد استقالة نيكسون وَعَدَ كارتر في حملته الانتخابية استعادة الأخلاق في البيت الأبيض، بعد سنوات من المحاولة وفضيحة ووترغيت، وكانت السمة المميزة لحملته نظره إلى آلات التصوير التّلفازيّة وقوله ببساطة إنّه لن يكذب على الشعب الأمريكي، ولكن بعد ثلاث سنوات، كذب مرّات عدّة لإخفاء خططه لإنقاذ الرهائن الأمريكان في إيران.

خلال السنوات الأولى من رئاسة كارتر، أُطيح بشاه إيران الذي طالما حصل على الدعم الأمريكي، بالثورة الإسلامية الأصولية، وعندما أُبْعِدَ منفياً، سمح له كارتر بالمجيء إلى الولايات المتحدة لتلقي العلاج الطبيّ، فاستولت عناصر مسلحة (ميليشيات) إيرانية؛ بسبب غضبها من ذلك على السفارة الأمريكية في طهران، واحتجزوا ستين رهينة. في حينها، استمرت الجهود البينيّة بين الدّولتين لتسوية أزمة الرهائن لأشهر من غير جدوى، وفي الوقت الذي أحصى فيه مذيعو الأخبار على شاشات التلفاز عدد الأيام ثمّ الشهور التي احتُجزَ فيها الأمريكان أسرى.

بعد احتجاز الرهائن بقليل، أمر كارتر جيشه بالتدرب لعملية الإنقاذ، ولم يتم إخفاء ذلك التدريب، ولكنّ ممثلي الإدارة أدلوا بإفادات مزيفة باستمرار؛ للتقليل من أهمية الشكوك عما كانوا ينوون عمله. ولأشهر عدّة، ادعى كلّ من البنتاغون والبيت الأبيض وإدارة الدولة أنّ مهمة تحرير الرهائن كانت مستحيلة التنفيذ. وفي الثّامن من يناير من عام 1980م، كذب الرئيس كارتر في مؤتمر صحفي قائلاً: «إنّ هذه العملية عرضة للفشل، وقد يكون مصيرها قتل». وفي أثناء قوله ذلك كانت قوة الدلتا العسكرية تتدرب لعملية الإنقاذ في الصحراء الجنوبية الغربية في الولايات المتحدة.

كذب كارتر على الشعب الأمريكي؛ لأنّه علم أنّ الإيرانيين كانوا يستمعون لما يقوله، وأراد تهدئة العناصر المسلّحة الإيرانية التي تحرس الرهائن؛ ليشعروا بالأمان، وجعل كارتر سكرتيره الصحفي جودي بويل ينكر أنّ الحكومة كانت تخطط لإنقاذ الرهائن في اللحظة نفسها التي كانت فيها مهمة الإنقاذ تتقدم على قدم وساق، وكتب كارتر في مذكراته: «إنّ أيّ اشتباه للعناصر بمحاولة الإنقاذ سوف يهدّد خطّتنا بالفشل؛ إذ يعتمد النجاح على عنصر المفاجأة[6]» تذكّر أنّ هتلر كذب أيضاً لكسب ميزة المفاجأة لدى الخصم، ونحن ندين هتلر، لا لأنه كذب بل لأهدافه وأفعاله. وعلى هذا، لا يُعدُّ كذب الزعيم الوطني لكسب ميزة على العدو خطأً في حدّ ذاته.

كان الإيرانيون الذين انتهكوا القانون الدولي من خلال احتجازهم موظفي السفارة الأمريكية رهائن، هم الهدف الرئيس في أكاذيب كارتر. ولم تكن هناك طريقة لخداعهم من غير خداع الشعب الأمريكي والمجلس، وكان الدافع هو حماية القوة العسكرية الخاصة بنا، لأجل قصير، على الرغم من إثارة بعض أعضاء المجلس مسألة ما إذا كان على كارتر

إبلاغهم بالمهمّة مسبقاً. ينصّ قرار قانون الحرب: ادعى كارتر أنّ عملية الإنقاذ كانت عملاً رحيماً، وليست عملية حربية. فيما بعد، أدين كارتر؛ لأنّ مهمة الإنقاذ فشلت، وليس لأنه خرق وعده بعدم الكذب.

كتب ستانسفيلد تيرنر مدير وكالة المخابرات المركزية في أثناء رئاسة كارتر، عن العلاقات الإيرانية – الكونترا، وحاجة مسؤولي المخابرات المركزية إلى توخّي الصدق مع مجلس الشيوخ، إضافة إلى أنّه أثار مسألة ما عليه فعله لو سأله مجلس الشيوخ ما إذا كانت المخابرات تُعِدُّ لمهمة إنقاذ، فقال: «كنت سأمر بمرحلة صعبة عند الإجابة، وأرجو أن أكون قد قلت شيئاً من قبيل أعتقد أنه من غير المناسب الحديث عن أيّ خطط جديدة لمعالجة مشكلة الرهائن لئلا يستنتج منها استدلالات غير صحيحة، وربما تسربت هذه الاستنتاجات للإيرانيين. بعد ذلك، ربما أستشير الرئيس عما إذا وجب علي العودة والإجابة عن السؤال بصدق[7]». لم يقل السيد تيرنر ما الذي عليه فعله لو أنّ الرئيس كارتر طلب إليه الرجوع إلى المجلس، وإنكار وجود أيّ خطط لإنقاذ الرهائن.

أكاذيب ليندن جونسون عن حرب فيتنام

كان الإخفاء الأكثر خطورة ما قام به الرئيس الأسبق ليندن ب. جونسون بإخفائه الحقائق الصّادمة عن الحرب في فيتنام عن الشعب. لقد فاز جونسون بالرئاسة بعد اغتيال جون ف. كيندي عام 1963م، ولكنه خاض الانتخابات عام 1964م. وفي أثناء حملته الانتخابية، قال السيناتور، وخصم جونسون الجمهوري من أريزونا، باري جولد ووتر: «إنه قد يكون على استعداد تام لاستخدام الأسلحة النووية لكسب الحرب. في حين اتخذ جونسون الوجهة المعاكسة، قائلاً: لن نرسل أولادنا الأمريكان تسعة أو عشرة آلاف ميل بعيدين عن ديارهم للقيام بما يفترض أن يقوم به الأسيويون أنفسهم. وبمجرد انتخابه واقتناعه باحتمال كسب الحرب من خلال إرسال قواته، أرسل نصف مليون من الفتيان الأمريكان إلى فيتنام خلال السنوات القليلة اللاحقة، وانتهى الأمر بإسقاط أمريكا لقنابل على فيتنام أكثر مما استخدم خلال الحرب العالمية الثانية.

اعتقـد جونسون أنه سيكون في موقف قوي للمفاوضة بنهاية مناسبة للحرب، فقط إذا اعتقد الفيتناميون الشماليون أنّ الرأي العام الأمريكي يدعمه؛ لذا، اختار جونسون ما كشفه للشعب الأمريكي عن تقدم الحرب، وأخبر قادته العسكريين أنه أراد نقل صورة أفضل نجاح ممكن للأمريكيين، مقابل فشل الفيتناميين الشماليين والفيتكونغ. وبعد مضي بعض الوقت، كانـت تلك المعلومات الوحيدة التي تلقاها من القـادة الميدانيين في فيتنام، ولكن المهزلة انكشفت بما حدث في كانون الثاني من عام 1968م؛ إذ كشف هجوم الفيتناميين الشماليين والفيتكونـغ، خـلال موسم عطلة التبت على الأمريكان للعالم مـدى بُعد الأمريكان عن كسب الحـرب، وحدث هجوم التبت خلال الحملـة الانتخابية الرئاسية الثانيـة. قال عضو مجلس الشيوخ روبرت كينيدي الذي نافس جونسون بصفته مرشح الحزب الديمقراطي: «إنّ هجوم التبت حطم الوهم الذي أخفينا من خلاله واقعنا المرّ حتى عن أنفسنا». أعلن جونسون بعد أشهر، قراره بعدم الترشح للانتخابات.

لا توجـد طريقة سهلة في ظـلّ الدّيمقراطيّة لتضليل أمة أخرى من غير تضليل شعبك، وذلـك مـا يجعل الخداع سياسة خطيرة جدّاً إذا كان نهجاً معتمداً. إنّ خدعة جونسون بشأن تقـدم الحـرب، لم تكن مسألة أسابيع أو حتى شهور فمن خـلال الإيهام بنصر وشيك، حرم جونسـون الناخبين من المعلومات التي يحتاجون إليها لاتخاذ القرارات السياسية الصّائبة، ولا يمكـن للديمقراطيّـة العيش إذا تحكّم حـزب سياسي معين في المعلومـات التي يمتلكها الناخبون حيال أمر حاسم يؤثر في تصويتهم لهذا المرشح أو ذاك.

وكمـا لاحظ عضـو مجلس الشيـوخ كينيدي، فإنّني أشـكّ أنّ ثمن هـذه الخدعة يكمن فـي أنّ جونسـون وبعض مستشاريه على الأقل كادوا أن يصدقـوا أكاذيبهم. ليس المسؤولون الحكوميـون وحدهم عرضة للوقوع في هذا الفخّ، وأعتقد أنّـه كلما كذب أحدهم أكثر أصبح الكـذب عليـه أسهل، وفي كلّ مرة تتكـرّر فيها الأكذوبة، يكون هناك اعتبـار أقل بما إذا كان من الصحيح الاندماج بالخدعة. بعد تكرار الكذبة، قد يصبح الكاذب مرتاحاً جدّاً بحيث لا يهتم بحقيقة أنّه يكذب، وإذا ما تمّ دفعه أو تحديه، فسيتذكر الكاذب أنه كذلك. وعلى الرّغم مـن أنّ جونسـون أراد أن يصدق ادعاءاته المزيفة بشان تقدم الحرب، وربما يكون في بعض الأحيان أعتقد أنها صادقة، فإنّني أشكّ في أنه نجح بالكامل في خداع نفسه.

كارثة مكّوك الفضاء تشالنجر وخداع الذات

أنْ يَخدعَ الشخص نفسَه أمر مختلف تماماً، ولا يدرك الشخص في خداع الذات أنه يكذب على نفسه، ولا يعرف دافعه الشخصي لخداع ذاته. أعتقد أنّ خداع الذات نادر الحدوث أكثر مما يدعيه الشخص الملوم لعذر نفسه، بعد حقيقة ارتكابه فِعْلةً ما. أثارت الأفعال التي أدت إلى كارثة مكوك الفضاء تشالنجر موضوع ما إذا كان الذين اتخذوا القرار لإطلاق المكوك، على الرغم من التحذيرات الشديدة عن الأخطار المحتملة، هم ضحايا خداع الذات. وإلاّ، فكيف يمكننا تفسير قرار أولئك الذين عرفوا أخطار المضيِّ قدماً بإطلاقه؟

في الثّامن والعشرين من يناير عام 1986، شاهد إطلاق مكوك الفضاء الملايين على شاشة التلفاز. وأُعلن عنه؛ لأنّ المعلمة كريستا ماك أوليف كانت من ضمن طاقمه، واشتمل الجمهور على كثير من أطفال المدارس بمن فيهم طلاب كريستا، والتي كان يفترض بها أن تعطي طلابها درساً من الفضاء الخارجي، ولكن بعد الإطلاق بثلاث وسبعين ثانية انفجر المكوك، وأسفر عن مقتل روّاده السبعة.

في الليلة التي سبقت الإطلاق، أوصت مجموعة من المهندسين في شركة مورتون ثايكول الشركة التي بنت الصواريخ المعززة بتأخير الإطلاق رسميّاً؛ لأنّ التوقعات بحدوث برودة في الطقس خلال الليل قد تقلل بشدة من مرونة الحلقات المطاطية العازلة المانعة للتسرب، وإذا حدث ذلك، قد يتسبب الوقود المتسرب بانفجار الصواريخ الداعمة، واتصل المهندسون في شركة ثايكول بإدارة شؤون الملاحة الجوية والفضاء (ناسا)، وحثّوا بالإجماع على تأجيل الإطلاق المقرر في صباح اليوم اللاحق.

لقد كان هناك فعلاً ثلاث مرات تأجيل لموعد الإطلاق، وبوعود ناسا أنّ المكوك الفضائي سيكون له جداول متوقعة، تناقش لورانس مولوي مدير المشروع الصاروخي التابع لناسا مع المهندسين في شركة ثايكول، وأفاد بعدم وجود أدلة تأثير للطقس البارد في الحلقات، وتحدث مولوي في تلك الليلة مع مدير شركة ثايكول بوب لند، والذي شهد لاحقاً أمام اللجنة الرئاسية المعنية للتحقيق بكارثة تشالنجر، شهد لند أنّ مولوي أخبره في تلك الليلة أن يضع (قبعة الإدارة) بدلاً من (قبعة الهندسة)، وقد غيّر لند بقيامه بذلك موقفه تجاه الإطلاق، وتجاهل المهندسين الذين يعملون معه. تواصل مولوي مع جو كيلمنستر أحد

نـواب الرئيس في شركة ثايكول، وطلب إليـه التوقيع على إطلاق إشارة البدء، وقد فعل ذلك الساعـة 11:45 مساءً، وأرسل إشـارة عبر النّاسخ (الفاكس) توحـي بالإطلاق لناسا. رفض آلـن ماكدونالد الذي كان مديراً لمشروع ثايكـول الصاروخي التوقيع على الموافقة الرسمية للإطلاق. وبعد شهرين، ترك ماكدونالد وظيفته في الشركة.

اكتشفت اللجنة الرئاسية لاحقاً، أنّ أربعة من كبار المديرين التنفيذيين الرئيسين عن التصريـح بكلّ إطلاق لم يُبلَّغوا بالخلاف بين مهندسي ثايكول وفريق إدارة صاروخ ناسا في الليلة التي جرى فيها اتخاذ قرار الإطلاق.

طاقم مكوك الفضاء تشالجنر

وشهـد كلٌّ من روبـرت سيك مدير المكوك فـي مركز كينيدي للفضـاء، وجين توماس مديـر إطلاق **تشالنجر** في مركز كينيدي، وأرنولد الدريتش مدير أنظمة النقل الفضائي في

مركز جونسون للفضاء في هيوستن، ومدير المكوك مور، بعدم إبلاغهم أنّ مهندسي ثايكول يعارضون قرار الإطلاق.

كيف استطاع مولوي إطلاق الصاروخ وهو يعرف احتمال انفجاره؟ يشير أحد التفسيرات إلى أنه أصبح ضحية خداع الذات، وأصبح في الواقع مقتنعاً أنّ المهندسين كانوا يبالغون بما يمكن أن يُعدّ مخاطرة غير ذات شأن، وإذا كان مولوي ضحية خداع الذات، فهل يمكن تحميله المسؤولية لاتخاذه قراراً خائباً؟ لنفترض أنّ شخصاً آخر كذب على مولوي وأبلغه بعدم وجود مخاطرة، فلن نلومه بالتأكيد لاتخاذه هذا القرار غير الصّائب. وهل يختلف الأمر لو أنه خدع نفسه؟ لا أعتقد ذلك، لقد خدع مولوي نفسه حقّاً. والموضوع باختصار، هل كان الأمر خداع ذات، أم حكماً سيئاً؟

لمعرفة ذلك، دعوني أقارن ما أعرفه عن مولوي بأحد الأمثلة واضحة المعالم لخداع الذات التي ناقشها الخبراء الذين درسوا هذا الموضوع[8]. في أيامه الأخيرة، يحتفظ مريض السرطان الذي يعتقد أنه سيشفى، على الرغم من وجود أعراض كثيرة لورم خبيث يتطور بسرعة، وغير قابل للشفاء – باعتقاد غير صحيح؛ الشّفاء. تمسك مولوي أيضاً باعتقاد غير صحيح، معتقداً أنّ المكوك يمكن إطلاقه بأمان، وأعتقد أنه ينبغي استبعاد البديل الذي اعتقد به مولوي بالتأكيد أنّ المكوك سينفجر. يعتقد مريض السرطان أنه سيشفى، على الرغم من وجود دليل عكسي قوي، ويعلم مريض السرطان أنّه أصبح أضعف، وأنّ الألم يتزايد يوماً بعد يوم، ولكنه يصرّ على أنّ هذه نكسات مؤقتة، وكذلك تمسك مولوي باعتقاده الخطأ على الرغم من وجود دليل يدحض اعتقاده هذا. فقد عرف أنّ المهندسين يعتقدون أنّ برودة الطقس ستتلف الحلقات المطاطية، وإذا تسرب الوقود فقد تنفجر الصواريخ، ولكنه استبعد ادعاءاتهم، ووصفها بالمُبالغ فيها.

لا يبلغنا ما وصفت لغاية الآن ما إذا كان مريض السرطان أو مولوي كاذبين متعمدين، أو هما ضحايا خداع الذات، والشرط الحاسم لخداع الذات هو أنّ الضحية لا تدرك دافعها

للحفـاظ على اعتقادهـا الزائف.* لا يعرف مريض السرطان باستمـرار أنّ خدعته يحفّزها عـدم قدرته على مواجهـة خوفه من موته الوشيـك، وهذا العنصرُ؛ أي عـدم إدراك الدافع لخـداع الذات، مفقودٌ عند مولـوي. عندما أبلغ مولوي لند أنّ يعتمر قبعـة الإدارة، أظهر أنه يـدرك ما يحتاج عملـه إلى الاحتفاظ بالاعتقاد أنّ عملية الإطلاق يجب أن تكون في موعدها المقرّر.

ريتشارد فينمن؛ الفائز بجائزة نوبل في الفيزياء، والذي عُيِّن في اللجنة الرئاسية التي كُلِّفـت بالتحقيـق بكارثة **تشالنجر**، كتب ما يلـي عن العقلية الإدارية التـي أثرت في مولوي: «عندمـا انتهى مشروع القمر، اضطرت ناسا لإقناع مجلس الشيوخ بوجود مشروع لا يستطيع أحـد القيـام به إلّا هـي. وللقيام بذلك، فمن الضـروري، في الأقل بدا أنـه ضروري في هذه الحالـة المبالغـة؛ المبالغة في مـدى اقتصادية المكوك، والمبالغة في عـدد مرات إطلاقه، والمبالغـة فـي الحقائق العلميـة العظيمة التـي ستُكتشـف[9]». أيضاً، قالت مجلـة نيوزويك مايأتـي: بدت الوكالة بمعنى ما ضحية دعايتها وترويجها، وتصرفت كما لو أنّ رحلة الفضاء عاديّةٌ جدّاً وكأنّها رحلة في حافلة.

كان مولـوي واحـداً من كثيرين فـي ناسا ممن حافظوا على تلك المبالغـات، ولا بدّ أنّه خشي ردّ فعل مجلس الشيوخ إذا أُجِّل إطلاق المكّوك للمرة الرابعة. فالدعاية المتشائمة التي تتناقـض ومزاعم ناسا المبالغ فيها، قـد تؤثر في اعتمادات المكوك المستقبلية، وربما بدت الدعايـة الضارة من تأجيل آخر بحكم المؤكـدة لذلك. وكانت خطورة الطقس احتمالاً فقط وليسـت يقيناً، حتى أنّ المهندسين الذين اعترضوا على الإطـلاق لم يكونوا متأكدين تماماً مـن حـدوث الانفجار، وأفاد بعضهم فيما بعد أنّهم فكروا قبل حـدوث الانفجار بثوانٍ أنه لن يحدث.

علينـا إدانة مولوي؛ بسبـب قراره الخائب، وبسبـب قراره بإعطاء وجهـة النظر الإدارية وزنـاً أكبر من وجهة النّظر الفنيّة للمهندسين. وذكر هانك شوي الخبير في سلامة الصواريخ،

* لربما أجادت المجموعات المهنية لو أننا أعطيناهم كذبة؛ ليحكموا عليها بالحالة التي يتعاملون معها عادة، ولربما نكون قد عرفنا من مكتشفو الكذب الجيدون بغض النظر عن الألفة الظرفية وليس من هم مكتشفو الكذب الجيّدون الذين يعملون في بيئاتهم المعتادة، واعتقد أن الأمر ليس كذلك ولا يمكن استبعاد هذه الاحتمالية إلا بالمزيد من البحث.

والذي راجع الأدلة بناءً على طلب ناسا: «إنّ العيب ليس في التصميم بل في القرار الذي جانبه الصواب، وعلينا ألاّ نفسّر أو نسوق الأعذار لقرار غير صحيح بغطاء خداع الذات، وعلينا إدانة مولوي لعدم إبلاغه مرؤوسيه الذين لديهم السلطة النهائية لقرار الإطلاق»، ويقدم فينمان تفسيراً مقنعاً لسبب تحمل مولوي المسؤولية على عاتقه، قائلاً: «إنّ الأشخاص الذين يسعون إلى موافقة مجلس الشيوخ على مشاريعهم لا يريدون سماع أيّ رأي عن المشكلات والأخطار... إلخ، ومن الأفضل ألاّ يسمعوا عنها، كي يكونوا أكثر (صدقاً)، فهم لا يريدون أن يكونوا في موقف الكذب على المجلس! بحيث تبدأ المواقف بالتغير سريعاً: ستقمع المعلومات المختلف عليها من الأساس (فنحن نواجه مشكلة مع الحلقات؛ ويجب أن نعالجها قبل الإقلاع ثانية)، وبابتسامات عريضة ومديرين من الدرجة المتوسطة يقولون: «إذا أبلغتني عن مشكلة الحلقات سيتعين علينا تفكيك المكوك وإصلاحه، أو بالقول: لا، سنبقى على موعد الإطلاق من غير تغييره؛ فبخلاف ذلك سيبدو الأمر سيئاً، أو: لا تقل لي شيئاً، ولا أريد أن أعرف عن ذلك. وقد لا يقولون صراحة: «لا تقل لي شيئاً»، ولكنهم يحاولون أن يثنوا الآخرين عن التواصل الذي يبلغ بالشيء نفسه[10]».

يمكن النظر إلى قرار مولوي بعدم إخبار مرؤوسيه بشأن الخلاف الحاد بإطلاق المكوك أنّه كذبة استغفال. تذكر تعريفي للكذب (في الفصل الثاني ص. 26) وهو أنّ شخصاً يضلِّل عمداً وباختياره شخصاً آخر من غير إشعار مسبق بحدوث الخداع. ولا يهمّ ما إذا كانت الكذبة قد تحققت من خلال قول ما هو مزيّف، أو من خلال إخفاء معلومات حاسمة، فتلك خروقات في التقنية فقط؛ أمّا التأثير فنفسه.

إنّ الإشعار المسبق للكذب مسألة حاسمة؛ فالممثلون ليسوا كاذبين، بل منتحلين؛ لأنّ جمهور الممثل يعلم مسبقاً أن دوراً ما سيُؤدَّى. ويتمثّل الأمر الغامض بدرجة أكبر بلعبة البوكر، حيث تسمح القواعد ببعض أنواع الخداع مثل الاحتيال، وفي مبيعات العقارات حيث لا يتوقع أحد من البائعين الكشف بصدق عن سعر البيع الحقيقي في البداية. إذا كان فينمّان محقّاً، وإذا كانت تطلعات ناسا المرتفعة قد ثبّطت التواصل بالقول: «لا تقل لي شيئاً»، عندها يمكن النظر إلى ذلك على أنّه إشعار مُسبق. لقد عرف مولوي وآخرون على الأرجح أنّ الأخبار السيئة، أو القرارات الصعبة، لم يكن يُسمح لها بالوصول إلى المسؤولين الأعلى رتبة، وإذا كان الأمر كذلك فيجب عدم النظر إلى مولوي على أنّه كاذب بعدم إخباره مرؤوسيه؛ لأنهم أذنوا له أن

يخدعهم، وعلموا أنه لم يُبلَّغوا. على وَفْق ما أرى، يتقاسم المرؤوسون الذين لم يُبلَّغوا بعض المسؤولية تجاه الكارثة مع مولوي الذي لم يخبرهم، ويتحمّل المرؤوسون المسؤولية الكاملة، ليس لقرار الإطلاق فقط، ولكن لإنشاء البيئة الوظيفيّة التي عمل فيها مولوي، وأسهموا بالظروف التي قادته لاتخاذ قرار خاطئ، ولنيته عدم إشراكهم باتخاذ القرار معه.

يلاحظ فينمان الشبه بين الوضع في ناسا من جهة وكيفية شعور المسؤولين متوسطي المستوى في العلاقات بين إيران – الكونترا، مثل بويندكستر من جهة أخرى حيال إخبار الرئيس ريغان عمّا كانوا يفعلونه، وإيجاد بيئة يصدّق فيها المرؤوسون أنّ أولئك الذين يمتلكون السلطة العليا ينبغي عدم إعلامهم بالأمور التي يمكن لومهم عليها لاحقاً. إنّ توفير سياسة إنكار معقولة للرئيس يدمر الحكم. لقد قال الرئيس هاري ترومان: «تتوقف المسؤولية هنا بحق؛ لذا، ينبغي للرئيس أو الرئيس التنفيذي أن يراقب، ويقيّم، ويقرّر، ويكون مسؤولاً عن قراراته. وقد يكون أيّ اقتراح غير ذلك من غير فائدة على المدى القصير، ولكنه يعرّض أي منظمة هرمية للخطر، ويشجع على عدم الانضباط، وعلى وجود بيئة للخداع المشروع».

القاضي كلارنس ثوماس والأستاذة أنيتا هيل

تقدم الشهادة المتضاربة على نطاق واسع التي قدمها المرشح للمحكمة العليا كلارنس ثوماس وأستاذة القانون أنيتا هيل في خريف عام 1991م عدداً من الدروس الواقعية عن الكذب. بدأت المواجهة التّلفازيّة قبل موافقة مجلس الشيوخ على ترشيح ثوماس للمحكمة العليا بأيام، وشهدت الأستاذة هيل أمام اللجنة القضائية في مجلس الشيوخ أنّها كانت ضحية للتحرّش الجنسيّ بين عامي 1981 و1983م، عندما كانت مساعدة كلارنس ثوماس، في البداية في مكتب الحقوق المدنية في وزارة التعليم، ثم عندما أصبح ثوماس رئيس لجنة تكافؤ فرص العمل، وقالت عن ثوماس: «لقد تحدثَ عن أفعال رآها في أفلام إباحية مرتبطة بهذه الأمور، وتحدث في مناسبات عدّة عن قدراته الجنسية... وهدّدني قائلاً: «إنْ أخبرتِ يوماً أحدهم عمّا أقوم به من تحرّش فستكون نهايتي»، ولقد تحدثت أنيتا بهدوء تام، وكانت أقوالها متسقة ومقنعة لدى كثير من المراقبين.

بعد شهادتها في الحال، أنكر القاضي ثوماس اتهاماتها بقوله: لم أقل أو أفعل ما تدَّعيه أنيتا هيل، وأودّ البدء بقول قاطع لا لُبس فيه: إنني أنكر الادعاءات الموجهة ضدي في هذا اليوم كلّها، وادعى الغضب على اللجنة لجرحها كرامته واستقامته، وادّعى كذلك أنّه ضحية هجوم بدوافع عنصريّة».

وتابع القول: «لا أستطيع التخلص من هذه الاتهامات؛ لأنها أسوأ الصور النّمطيّة الموجودة في أذهاننا عن الرجال السّود في هذا البلد. مشتكياً بشأن المحنة التي جعله مجلس الشيوخ يعانيها»، ثمّ قال: «كنت أفضل تلقّي رصاصة قاتلة بدل عيش هذا الجحيم»، وتابع: «إنّ جلسة الاستماع هي إعدام عالٍ التقنية للسود». وكان شعار مجلة **التايم** الرئيس في ذلك الأسبوع: «كما يبدو على الأمة، يقدم شاهدان من ذوي المصداقية وجهات نظر متضاربة عما حدث قبل عَشْرِ سنوات تقريباً». وكتبت نانسي غيبس أحد كتّاب الأعمدة في **التايم**: حتى بعد الاستماع إلى الشهادات المؤلمة جميعها، فمن يستطيع الثقة بمعرفته لما حدث حقّاً؟ ومن الذي كان الكاذب الأكبر؟

كلارينس ثوماس

obeikandl.com

أُشدِّد هنا على السلوك الظاهر لدى هيل وثوماس في أثناء شهادة كلّ منهما، وليس على شهادة ثوماس أمام اللجنة قبل قضية أنيتا هيل، ولا تاريخهما، أو شهادة الشهود الآخرين عنهما، وبالتفكير في سلوكهما فقط، لم أجد ما هو جديد أو خاص. فقد استطعت ملاحظة ما كان واضحاً للصحافة فقط، وهو أنّ كلَّ واحدٍ منهما تحدث وتصرف بأسلوب مقنع، ولكن هناك دروس ينبغي تعلمها من هذه المواجهة عن الكذب والسلوك.

لم يكن من السهل على أيٍّ منهما الكذب متعمداً أمام الأمة جمعاء، وكانت الأخطار على كلٍّ منهما مرتفعة جدّاً. فكر فيما يمكن أن تؤول إليه الأمور لو تصرف أيٌّ منهما بطريقة يمكن الحكم عليه من خلالها بالخطأ أو الصواب، كما في الكذب أمام وسائل الأعلام والشعب الأمريكي، ولكن ذلك لم يحدث؛ إذ، بدا أنهما يعنيان ما يقولان.

لنفترض أنّ هيل كانت صادقة، وقرّر ثوماس الكذب عمداً. ولو أنّه رجع إلى الفصل الثاني من كتاب (**الأكاذيب**) لوجد نصيحتي؛ أفضل طريقة لإخفاء الخوف من انكشاف الكذب هي وضع قناع لعاطفة أخرى، وباستخدام المثال من رواية أبدايك الذي تقدم ذكره سابقاً، وكيف استطاعت الزوجة اللعوب خداع زوجها المتشكك من خلال الهجوم، وتصنّع الغضب، وجعله مدافعاً؛ بسبب عدم تصديقه إياها. هذا ما فعله كلارنس ثوماس تماماً، فقد كان غضبه شديداً، ولم يكن هدفه أنيتا هيل بل مجلس الشيوخ، وامتلك الميزة الإضافية المتمثلة بحشد التعاطف لدى كلّ من يشعر بالغضب من السياسيين بما يشبه القتال بين داود وجوليت.

وكان من الممكن أن يخسر ثوماس التعاطف لو أنه هاجم هيل، ولخسر أعضاء مجلس الشيوخ التعاطف لو أنّهم هاجموا ثوماس الرجل الأسود الذي يقول: «إنه سيُعدم؛ بسبب الغطرسة». ولو أنه أراد الكذب فسيكون من المنطق ألّا يشاهد شهادة أنيتا هيل كي لا يسأله أعضاء مجلس الشيوخ عنها.

أنيتا هيل

ربمـا يرضي هذا النّهج مـن التفكير الذين عارضوا ثوماس قبل جلسة الاستماع، ولكنه لا يثبـت أنه يكذب، وربما يكون قـد هاجم لجنة مجلس الشيوخ لو كان صادقاً. ولو كانت هيل هـي الكاذبـة، لكان لدى ثوماس الحقّ كلّه بالغضب من مجلـس الشيوخ؛ لسماعهم ادعاءها، والحديث عـن ذلك في اللحظة الأخيرة على الملأ عندما بدا أنّ خصومه السياسيين فشلوا فـي منع ترشيحه. لو كانت هيل هـي الكاذبة، لكان ثوماس متضايقاً وغاضباً من عدم قدرته على مشاهدة شهادتها على التلفاز.

هـل كانت أنيتـا هيل تكذب؟ أعتقد أنّ ذلك غير وارد، وإذا، كانت كذلك، لكانت خائفة مـن عدم تصديقها، إضافـة إلى إنه لم تكن هناك علامة على الخـوف من الانكشاف، فقد أدت شهادتهـا ببـرود وهدوء وبتحفّـظ، وبقليل من علامـات العاطفة، لكنّ غيـاب القرائن السلوكيـة علـى الخداع لا يعنـي أنّ الشخص صادق، ولقد كان لدى أنيتـا هيل الوقت الكافي للتحضير لإفادتها والتدرب عليها، ومن المحتمل أن تكون قادرة على أداء ذلك بإقناع، ولكن هذا ليس وارداً.

على الرّغم من الاحتمال الأكبر أن يكون ثوماس هو الكاذب وليس أنيتا هيل، فإنّ هناك احتمالاً ثالثاً على أنّها الأكثر مصداقية. لم يَصْدُقْ أيٌّ منهما، ومع ذلك قد لا يكون أيٌّ منهما قـد كذب أيضـاً. لنفترض أنّ تحرّشاً ما قد حدث، ولكنه ليـس بالقدر الذي ذكرته الأستاذة هيـل، وأكثـر مما اعترف به القاضي ثوماس، ولو أنّ مبالغتهـا وإنكاره تكرّرا مرة بعد أخرى، فستكـون هناك فرصـة ضئيلة أن يتذكر كلّ منهما في وقت شهادتهمـا أنّ ما يقوله الآخر لم يكن صحيحاً تماماً.

لربمـا نسي ثوماس ما فعله، أو حتـى إذا تذكر ما فعل فسيكون نسخة محسّنة، وعندها سيكـون غضبـه تجاه اتهاماتها له ما يسوّغه تماماً؛ فهو لا يكذب كما يعتقد، ويتذكر أنّه يقول الصـدق، واذا كان لدى هيل سببٌ لكره ثوماس لسبب تافـه، أو لإهانة حقيقية، أو متصوَّرة، أو لأيّ سبب آخر، فقد تزخرف، وتضخّم، وتفسّر ما قد حدث فعلاً، وهي أيضاً تقول الصدق كما تعتقد وتتذكر. يشبه هذا خداع الذات، والفرق الرئيس أن يكون كذلك في هذه الحالة هو أنّ الاعتقاد الزّائف يتطور ببطء بمرور الوقت، من خلال التكرار الذي تزداد تفاصيله في كلّ مرة، قد لا يعتقد بعض من يكتب عن خداع الذات أنّ هذا فرق ذو أهمية.

ليسـت هناك طريقـة لمعرفة أيّ التفسيرات هي الصحيحة مـن سلوكهم، وما إذا كان هـو الكاذب، أم هي، أم أنّ الاثنين كاذبان؟ ولكن عندما يصرّ المتّهم على موقفه بقوّة حيال التحرش الجنسـي، وعمن ينبغي أن يكـون في المحكمة العليا، وعن أعضـاء مجلس الشيوخ وعـن الرجال... وهلمّ جرّا، فمن الصعب احتمـال عدم معرفة النتيجة التي يَخلصون إليها. وبمواجهة ذلك الغموض، يسعى المستجوِبون إلى الحلّ عن طريق الاقتناع التام أنّهم قادرون

علـى معرفة الصادق مـن السلوك، ويكون ذلك عادة الشخص الـذي كانوا أكثر تعاطفاً معه في البداية.

لا يعنـي ذلك أنّ القرائـن السلوكية على الخداع عديمة الفائدة، ولكن ينبغي لنا معرفة متى تكون ذوات فائدة ومتى لا تكون كذلك، وكيفية تقبُّل الأمر عندما لا نستطيع الحكم على الشخص أنه صادق أم كاذب. هناك قانون تقادمٍ يُسْقِطُ تُهَمَ التحرش الجنسي؛ هذا القانون محدّد بتسعين يوماً. وأحد الأسباب الوجيهة لوجود ذلك القيد يكمن في جدّة القضايا، وربما تكـون القرائن السلوكية على الخـداع أكثر قابلية للكشف. فلو أمكن رؤية كلّ واحد منهم وهو يشهـد في غضون أسابيع من التحرش المزعوم، لكانت هناك فرصـة أفضل لمعرفة أيهما يقول الصدق من السلوك، ولربما كانت الاتهامات والإنكار مختلفة.

بلد الأكاذيب

قبـل بضع سنوات، اعتقدت أنّ أمريكا قد أصبحت بلـداً يغصُّ بالأكاذيب: من أكاذيب لينـدون ب. جاكسـون بشأن حرب فيتنـام، وفضيحة نيكسون ووترغيـت، وريغان والعلاقات الإيرانيـة– الكونترا، والغموض المستمر عن دور عضو مجلس الشيوخ إدوارد كينيدي بموت امـرأة صديقة في جابـا كويدك، وانتحال السيناتـور بايدن الأدبي، إلـى كذبة عضو مجلس الشيوخ السابق غاري هارت خلال الحملة الرئاسية عام 1984م بشأن علاقته الغرامية خارج إطار الزوجية.

ليسـت السياسـة وحدهـا ملفَّعةً بالكـذب؛ فقد لفتـت الأكاذيب في الأعمـال التجارية الأنظار؛ في وولت ستريت، وفضائح القروض والمخدرات، والأكاذيب في الرياضة، مثل قاعة مشاهير كرة القاعدة (البيسبول) لبيت روز؛ لإخفاء لعبة القمار، والرياضي بن جونسون في إخفاء تعاطيه المخدرات.

أمضيـت خمسة أسابيع محاضراً في روسيا في شهر مايو من عام 1990. لقد دُهشت من أنّ الرّوسـ أصبحـوا أكثر صراحة؛ إذ، كنت فيها من قبل أستـاذاً في فولبرايت في عام 1979. فلم يعودوا خائفين من التحدث مع أمريكي، أو انتقاد حكومتهم؛ لقد أتيتُ إلى البلد المناسب. قيـل لي: هذه بلد الأكاذيب! سبعون سنة من الأكاذيب! وقال لي الروس: كيف أنهم عرفوا دائماً

مدى كذب حكومتهم عليهم. وعلى الرّغم من بقائي مدة خمسة أسابيع هناك فقد شاهدت مدى دهشتهم لمعرفتهم مزيداً من الأكاذيب التي لم يشكّوا في وجودها من قبل. والمثال المؤثر كان بالكشف عن الحقيقة المتعلقة بمعاناة شعب لينينغراد في أثناء الحرب العالمية الثانية.

فبعد الغزو النازي الألماني لروسيا في عام 1941م، حاصرت القوات النازية مدينة لينينغراد (سانت بيترسبيرغ حاليّاً) ودام حصارهم تسعمئة يوم، ويقال إنّ مليون ونصف المليون شخص قضوا في لينينغراد من جرّاء المجاعة. وقد ذكر كلّ شخص كبير السّنّ التقيته تقريباً عن أفراد من عائلة واحدة فُقدوا في أثناء الحصار. ولكن عندما كنت هناك، أعلنت الحكومة أنّ عدد المدنيين الذين ماتوا في الحصار قد ضُخِّم. وفي اليوم الذي تحتفل فيه البلاد بالانتصار على النازيين في شهر أيار، أعلنت الحكومة السوفييتية أنّ خسائر الحرب كانت مرتفعة؛ بسبب عدم وجود عدد كافٍ من الضباط لقيادة القوات السوفييتية. وقالت الحكومة: «إنّ القائد السوفييتي ستالين قتل كثيراً من مساعديه من الضباط في عملية تطهير قام بها قبل الحرب».

والأمر لا يقتصر على كشف الأكاذيب الماضية غير المتوقعة، بل تستمر الأكاذيب الجديدة بالحدوث. فبعد تولّي ميخائيل غورباتشوف السلطة، كانت هناك حادثة نوويّة كارثيّة في تشيرنوبيل؛ انتشرت سحابة من الإشعاع على أجزاء من أوروبا الغربية والشرقية، لكنّ الحكومة السوفييتية لم تكشف عن شيء في البداية؛ إذ سجّل العلماء في الدول الإسكندنافية مستوياتٍ عاليةً من الإشعاع في الجوّ. وبعد ثلاثة أيام، اعترف المسؤولون السوفييت أنّ حدثاً جلَلاً قد وقع، وقد لقي اثنان وثلاثون شخصاً حتفهم. وبعد انقضاء أسابيع عدّة، تحدث غورباتشوف علناً، وأمضى معظم الوقت ينتقد ردّة فعل الغرب. لم تعترف الحكومة مطلقاً أنّ الأشخاص الذين لم يُرحلّوا في وقت مبكر من المنطقة، قد عانى كثيرٌ منهم أمراضاً؛ بسبب الإشعاع. ويقدّر العلماء الروس الآن أنّ ما يقارب عشرة آلاف شخص قد يلاقون حتفهم من جرّاء حادثة؛ تشيرنوبيل.

ولقد عرفت عن ذلك من طبيب أوكراني شاركني المقصورة في رحلة القطار الليلية في الطريق إلى كييف. أخلى مسؤولو الحزب الشيوعي عائلاتهم كما ذكر، في حين، أُبلغ الباقون أنّ الوضع آمن للبقاء. يعالج هذا الطبيب الآن، الفتيات صغيرات السّنّ المصابات

بسرطـان المبيض، وهـو مرض لا يكون في هـذه السّنّ المبكرة. وفي جنـاح الأطفال الذين يعانون أمراض الإشعاع، توهّجت الأجسام في الليل، ولم أكن قادراً على التأكد؛ بسبب صعوبة اللغـة مـا إذا كان يتحدث حرفيّاً عن ذلك أم مجازيّاً. قـال الطبيب: «لقد كذب غورباتشوف علينا كما كذب عليهم. إنه يعرف ما حصل، ويعرف أننا نعرف أنه يكذب».

التقيـت بطبيـب نفسـيّ كان مكلّفا بمقابلـة الذين يعيشـون في المناطـق القريبة من تشيرنوبيـل لتقييم كيفية تعاملهم مـع الضغط والتوتر بعد ثلاث سنوات. وأعتقد أنّ محنتهم ستكون أخفّ جزئيّاً إذا لم يشعروا أنّ حكومتهم قد تخلّت عنهم، وكانت توصيته الرسمية أن يتحدث غورباتشوف إلـى الأمة ويقول: «لقد اقترفنا خطأً فادحاً بالتقليل من خطر الإشعاع، وكان ينبغـي لنـا إجلاء الكثيرين بسرعـة أكبر، ولكن لم يتوافر المـكان المناسب لوضعهم. وبمجـرد علمنـا عن خطئنا كان ينبغـي أن نخبركم بالحقيقة المؤلمـة، لكننا لم نفعل ذلك. والآن، نريدكـم أن تعرفوا الحقيقة وتعلموا أنّ الأمة تعاني من أجلكم. سنقدم العناية الطبية التي تحتاجون إليها، ونأمل لكم الخير في المستقبل»، إلا أنّ التوصية ذهبت أدراج الرّياح.

لـم ينتـهِ الغضب بشأن الأكاذيب عن تشيرنوبيل بعد. ففي وقت مبكر من شهر ديسمبر عام 1991؛ أي بعـد مـرور أكثر من خمـس سنوات على الحادثة، طالب البرلمـان الأوكراني بمحاكمة ميخائيـل غورباتشوف وسبعة عشـر آخرين من المسؤولين السوفييـت والأوكرانيين، وقال رئيس اللجنـة التشريعيـة الأوكرانية التي حققـت بالحادثة فلوديمير يافورسكـي: «جميع القيادات، من غورباتشـوف ونزولا حتى معالجـي البرقيّات المرمّـزة، كانوا يدركون مستـوى التلوث الإشعاعي النشط، وذكر القادة الأوكرانيون أنّ الرئيس غورباتشوف أخفى شخصيّاً مدى التّسرّب الإشعاعيّ.

لقد تعلّم السوفييت لعقود أنهم إذا أرادوا إنجاز أيّ شيء فإنّ عليهم المراوغة والتهرب مـن القوانيـن، ولقد أصبح الكـذب والخداع فـي البلد أمـراً طبيعيّاً؛ إذ، عـرف الجميع أنّ النظـام فاسد وأنّ القوانين غير عادلة، ويتطلب البقاء على قيد الحياة الخروج عن النظام. لا تستطيـع المؤسسـات الاجتماعية العمل عندمـا يعتقد الجميـع أنّ القوانين جميعها يجب انتهاكهـا أو التّملّص منها، ولست مقتنعاً أنّ أيّ تغيير فـي الحكومة سيغير بسرعة مثل هذه التوجيهات. ولا يصدق أحد الآن ما يقوله أيّ كان في الحكومة عن أيّ شيء.

يصـدّق عـدد قليل مـن الأشخاص الذين التقيت بهـم غورباتشـوف، وكان ذلك قبل انقـلاب 1991 الفاشـل. لا تستطيع الأمة البقاء إذا لم يُصـدَّق الزعيم، وربما يكون هذا هو مـا يجعل الشعب مستعداً ومتحمساً لإعطاء الـولاء لأيّ زعيم قويّ ذي ادعاءات جريئة جدّاً، وأفعاله قوية بما فيه الكفاية لكسب ثقتهم ثانية.

يمـزح الأمريكان عـن الساسـة الكاذبين بسؤالهـم: كيف تستطيع معرفـة متى يكذب السياسي؟ فيجيبون:عندمـا يحرك شفتيه. لقد أقنعتني زيارتي إلى روسيا أننا على العكس؛ فما زلنا نتوقع أن يكون زعماؤنا صادقين على الرغم من أننا نشك أنهم لن يكونوا كذلك.

تكون القوانين فاعلة عندما يعتقد الأشخاص أنّها عادلة، وعندما تكون الأقلية، وليست الغالبيـة العظمى، مـن يشعر أنّ من الحق انتهاك أيّ قانون جائـر. وفي الديمقراطية، تعمل الحكومة فقـط إذا اعتقد معظم الأشخاص أنهم يسمعون الحقيقة معظم الوقت، وأنّ هناك بعض الادعاء بالإنصاف والعدالة.

لا تـدوم أيّ علاقة مهمة إذا فُقـدت الثقة تماماً؛ فإذا اكتشفت أنّ زميلاً لك قد خانك، وكـذب عليك مـراراً لمصلحته، فلا يمكن أن تستمر تلك الصداقة، وكذلك لا يمكن أن يكون الـزواج سـوى حالة من الفوضى إذا علم أحد الزوجين أنّ الآخر كان مخادعاً، ليس مرة ، بل مـرات عـدّة. وأشكّ في بقاء أيّ شـكل من أشكال الحكومة طويـلاً إلا باستخدام القوة لقمع الشعب إذا اعتقد الشعب أنّ ديدن قادته الكذب.

لا أعتقد أننا وصلنا تلك المرحلة؛ فالكذب من جانب الموظفين العموميين ما يزال ذا أهميـة إخبارية ومُداناً، وليـس محطّ إعجاب. إنّ الأكاذيب والفساد جزءٌ من تاريخنا، وليس حديثاً، ولكنه يعدّ انحرافاً لا قاعدة، وما زلنا نعتقد أننا قادرون على استبعاد هؤلاء الأوغاد.

فـي حيـن، يمكن عدَّ ووترغيت، والعلاقة بيـن إيران – الكونترا دليـلاً على أنّ النظام الأمريكـي قد فشـل، ويمكننا أيضـاً عدّها دليلاً على العكـس تماماً؛ إذ وجـب على نيكسون الاستقالـة. وعندما أشرف رئيس المحكمة العليا وارن برغر، على قسم جيرالد فورد لليمين الدستوريـة، ليحلّ محـلّ نيكسون، قال أمام أحـد أعضاء مجلس الشيـوخ الحاضرين: «لقد عمـل النظام، الحمد لله!»[11]، ويُحاكم الآن نـورث و بويندكستر وآخرون، بسبب كذبهم على

مجلس الشيوخ. انتقد عضو مجلس الشيوخ لي هاملتون أوليفر في أثناء جلسات الاستماع أمام اللجنة التي تحقق بالعلاقات بين إيران – الكونترا باقتباس من ثوماس جيفرسون: يتكوّن الفنّ كلّه في الحكومة من فنّ الصّدق.

obeikandl.com